

محاضرات مقياس قضايا النقد الأدبي القديم

الأستاذة: فوزية سعيود

المستوى: سنة ثانية ماستر أدب قديم، الفوج: 01، السداسي الثالث.

المحاضرة السادسة: قضية الصدق والكذب

تمهيد:

لقد كان لنقد المعنى حضوره البارز ضمن قضايا النقد الأدبي من خلال قضية الوضوح والغموض، والصحة والخطأ، والصدق والكذب، هذه القضية الأخيرة سال فيها حبر كثير، واختلفت فيها وجهات نظر النقاد لاختلاف مرجعيات كل واحد منهم، ولعلّ جماع القول في هذه القضية لا يخرج عن ثلاثة مواقف، كل موقف له مؤيدوه، وله أدلته، وله وجهاته. فإذا كان بعضهم قد ألزم الشاعر بضرورة الصدق في القول، فإن معظم النقاد لم يلزموه لا بصدق ولا كذب، وإنما المعتبر في ذلك يرجع إلى البراعة والمقدرة في الصناعة والصيغة الشعرية، وهناك من توسط في ذلك.

أولاً _ أحسن الشعر أصدقُه:

إن المنتبِع للشعر الجاهلي يرى إشارات لقضية الصدق والكذب، فقد كانت العرب تعدُّ "المهلهل بن ربيعة التغلبي" من الشعراء الكذبة في قوله:

ولولا الريحُ أسمعُ أهلَ حَجْرٍ صليلَ البيضِ تُقرعُ بالذُّكُورِ

ولهذا قال عنه "ابن سلام الجمحي": « وزعمت العرب أنه كان يدّعي في شعره ويتكثر في قوله بأكثر من فعلة».

وقال عنه "ابن قتيبة" كذلك: « هو أحد الشعراء الكذبة»، تعليقا على بيته السابق.

وهذا "زهير بن أبي سلمى" يصف حديثه بالصدق في وصف الحرب، وذلك في قوله:

وما الحربُ إلا ما علمتمُ ودقتمُ وما هو عنها بالحديث المرجمُ

يعلق "الزوزني" على البيت بقوله: « ليست الحرب إلا ما عهدتموها وجربتوها ومارستم كراهتها، وما هذا الذي أقول بحديث مرجّم عن الحرب، أي هذا ما شهدت عليه الشواهد الصادقة من التجارب وليس من أحكام الظنون».

فهذه الإشارات جميعها توحى بكراهية العرب للكذب وإشادتهم بضده، ومع مجيء الإسلام توطّد هذا الحكم بوصفه معيارا أخلاقيا أولا، ونقديا ثانيا، وهذا ما دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والتي تدل في مجموعها على ذم الشعراء الذين يسيرون في سبيل الضلالة والهوى، ويقولون ما لا يفعلون، واستثنى الذين آمنوا وعملوا الصالحات؛ الذين يتحرون الصدق والحق في أقوالهم وأشعارهم.

وسار الصحابة من بعد النبي - صلى الله عليه وسلم - على الطريق نفسه، حيث أصبح معيار الصدق بعد ذلك من أهم مقاييس صحة المعنى وجودته.

_ فهذا "الجاحظ" نراه يميل إلى الواقعية في الطرح الأدبي، وعدم الانسياق مع مبالغات المولدين.

_ ويعدّ "ابن طباطبا" من أوائل الذين نادوا بضرورة الربط بين القيمة الأخلاقية وبين النواحي المختلفة المتعلقة بالشعر؛ كالصدق في التشبيه، والصدق في عاطفة الشاعر، فنجده مثلا يقول متحدثا عما يجب أن يكون عليه الشاعر في تناوله للأغراض الشعرية المختلفة من خلال تناسبها مع المعاني المتوافقة معها: « إذا وافقت هذه المعاني هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستعملها، ولا سيما إذا أُيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس يكشف المعاني المختلجة فيها والتصريح بما كان يُكتم منها، والاعتراف بالحق في جميعها».

ولعل قمّة الجمال عند "ابن طباطبا" مبعثها الصدق، وهو في أصله « عمل ذهني يعرض على العقل ليقبله أو يحكم فيه، والعقل لا يطمئن إلا إلى الصدق، وهو يستوحش من الكلام الجائر الباطل».

ولهذا نجده عند الحديث عن المولدين، يجعل أفضلية القدامى عليهم يتمثل في الصدق الذي يمثل قيمة حاضرة في جل أغراضهم الشعرية.

_ أما "عبد القاهر الجرجاني" فلا يختلف موقفه كثيرا عن موقف "ابن طباطبا" في اعتبار الصدق قيمة يشهد لها العقل قبل النقل، ولكنه مع ذلك أكثر مرونة في التعامل مع هذه القضية، وهذا عندما يقر بمقبولية التصوير والتخييل والتمويه، بل ينقل موقف هذا المذهب مبينا المقصود من بيت "حسان بن ثابت" الشهير الذي يقول فيه:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يُقالُ إذا أنشدته صدقا

حيث يرى أن شرح مقولة "أحسن الشعر أصدقه" يراد بها « أن خير الشعر ما دل على حكمة يقبلها العقل، وأدب يجب به الفضل، وموعظة تُروّض جماح الهوى وتبعث على التقوى، وتبين موقع القبح والحسن في الأفعال، وتفصل بين المحمود والمذموم من الخصال، وقد ينحى بها نحو الصدق في مدح الرجال كما قيل: كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه، والأول أولى، لأنهما قولان يتعارضان في اختيار نوعي الشعر».

ويتابع قوله هذا بذكر دليل القائلين بصدقية الشعر: « فمن قال: "خيرهُ أصدقه" كان ترك الإغراق والمبالغة والتجوز إلى التحقيق والتصحيح، واعتماد ما يجري من العقل على أصل صحيح، أحب إليه وأثر عنده، إذ كان ثمره أظلم، وأثره أبقي، وفائدته أظهر، وحاصله أكثر».

_ إن من النقاد من ينكر الكذب القائم على المبالغة ويرى « أن خير الكلام ما خرج مخرج الحق، وجاء على منهاج الصدق من غير إفراط ولا تفريط، والمبالغة لا تخلو عن ذلك كما جاء في أشعار المتأخرين من الإغراق والغلو» هذا من جهة، و« أن المبالغة لا يكاد يستعملها إلا من عجز عن استعمال المألوف والاختراع الجاري على الأساليب المعهودة، فلا جرم عمد إلى المبالغة ليسد خلل بلادته بما يظهر فيه من التهويل ولهذا تراها مخرجة للكلام إلى حد الاستحالة» من جهة ثانية، وهذا ما ذكره "حازم القرطاجني".

ثانيا _ أحسن الشعر أكذبه:

إذا كان الغالب على المعيار الحاكم على الشعر في صدر الإسلام هو معيار الصدق وإصابة الحق، فإن الأمر اختلف في العصر الأموي، وذلك لاختلاف الظروف السياسية والاجتماعية والأخلاقية، فقد خرجت كثير من الأغراض الشعرية عما كانت عليه من التزام ديني وسلوكي، فأصبح الشعراء لا يتورعون عن قول الغزل الفاحش، والهجاء المقذع، والمدح الكاذب، والفخر بالأحساب والأنساب، وقول الباطل، من ذلك ما قيل لـ "نصيَّب" « يا أبا محجن ألا تخبرنا عنك وعن أصحابك؟ قال: بلى، جميل أصدقنا شعرا، وكثير أبكنا على الظعن، وابن أبي ربيعة أكذبنا، وأنا أقول ما أعرف».

وعلى هذا فعمر بن أبي ربيعة أكذب القوم، قال "ابن عائشة": « حضر "ابن أبي عتيق" "عمر بن أبي ربيعة" وهو ينشد قوله:

ومن كان محزوناً يهراقِ عبْرَةً وهي غرْبُها فليأتنا نَبْكه غَدًا

نُغنه على الإثْكالِ إن كان ثاكِلًا وإن كانَ محزونًا وإن كانَ مقصدًا

قال: فلما أصبح "ابن أبي عتيق" أخذ معه "خالدا الحريت" وقال له: قم بنا إلى "عمر" فمضيا إليه، فقال له "ابن أبي عتيق": قد جنناك لموعدك، قال: وأي موعد بيننا؟ قال: قولك: فليأتنا نَبْكه غدا، قد جنناك والله لا نبرح أو تبكي إن كنت صادقاً في قولك، أو ننصرف على أنك غير صادق، ثم مضى وتركه».

وأصبح الكذب في العصر العباسي يمثل توجهها واضح المعالم له أنصاره سواء عند الشعراء أو النقاد، فخير ما نمثل به بيت "البحثري" الشهير، الذي يقول فيه:

كلفتمونا حدود منطِقكم في الشعر يكفي عن صدقه كذبه

أما النقاد، فلعل "قدامة بن جعفر" يُعدُّ أول من خفف حدّة النظر إلى الكذب على أنه مخالفة للواقع، إلى أنه نوع من الغلو المستملح الذي لا بد من حضوره في الشعر، لأنه هو من يُعطي الشعر تمييزه عن غيره من الأجناس الأدبية الأخرى. فهو يرى أن «الصدق ليس معياراً نقدياً يميز الجودة من الرداءة في الشعر».

ولم يبتعد "الأمدي" عن هذا التصور حيث يقول: « والشاعر لا يطالب بأن يكون قوله صادقا، ولا أن يوقعه موقع الانتفاع به؛ لأنه قد يقصد إلى أن يوقعه موقع الضرر». لاشك أن الصلة وثيقة بين الكذب كقيمة أخلاقية والكذب كقيمة فنية، ولهذا نجد من يجيز الكذب بالتخييل والتمويه، ويرى أن الكذب الفني فيه مبالغة وإغراق وغلو وتخييل، وصاحبه يعلم عدم صدقيته والمتلقي كذلك.

ثالثا _ أحسن الشعر أقصده:

وهذا موقف وسط بين الرأيين السابقين، ويمثله "المرزوقي" الذي لم يرجح كفة أحدهما على الآخر، حيث يرى أن « أحسن الشعر أقصده؛ لأن على الشاعر أن يبالغ فيما يصير به القول شعرا فقط، فما استوفى أقسام البراعة والتجويد أو جلها من غير غلو في القول ولا إحالة في المعنى، ولم يُخرج الموصوف إلى أن لا يؤمن لشيء من أوصافه، لظهور السر في آياته، وشمول التزويد لأقواله، كان بالإيثار والانتخاب أولى».

وممن رأى التوسط في الحكم "حازم القرطاجني"، وذلك بعد ما تناول جميع أوجه الصدق والكذب كما يراها، يقول: « فقد تبين من هذا ومما قبله أن الشعر له مواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الصادقة، ومواطن لا يصلح فيها إلا استعمال الأقاويل الكاذبة، ومواطن يصلح فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال الصادقة أكثر وأحسن، ومواطن يحسن فيها استعمال الصادقة والكاذبة واستعمال الكاذبة أكثر وأحسن، ومواطن تستعمل فيها كلتاها من غير ترجيح، فهي خمسة مواطن، لكل مقام منها مقال».

إن هذا الموقف الذي يرى أصحابه التوسط في قول الشعر بين الصدق والكذب انطلق من اعتبار كلا الوصفين له قيمة وأفضلية في صناعة الشعر، وأنهما يأتيان على حسب المقام الوارد فيه.